دور مصر فى الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية كما يوحى اسمها حضارة المسلمين فى مختلف ديارهم وأوطانهم. أسهم فيها الجميع على تفاوت فى التقبل والعطاء. **ولمصر فى هذه الحضارة إضافات جذرية تتمثل فى:**

* العلوم الإسلامية
* التصوف
* البيئة الحضارية
* جمع الحديث
* الفقه
* علم القراءات
* تفسير القرآن
* الأزهر
* الفن الإسلامى
* الادب العربى بشقيه –الفصيح
– الشعبى
* الوقفة الحاسمة فى المعارك الحاسمة – الصوارى
– عين جالوت
– حطين

دور مصر فى الدين

علامات كبيرة مضيئة لمصر الإسلامية، فى تاريخ الإسلام.

ومع أن الموضوع كبير واسع متعدد الجوانب إلا أنه يحتاج إلى طواف رابط للخطوط العريضة فى حياة مصر وتاريخ الإسلام فى محاولة تعميق وتفسير العطاء المتبادل بينهما

تصح به النتائج حين ترفدها وتؤصلها مقدمات دارسة تتعمق الأسباب ولاتكتفى بظواهرها حتى ولو قام عليها دليل.

عندما جاء الإسلام، شريته مصر ونمت به ونمته فلم يمح شخصيتها بل أضاف إليها عمقا جديداً، وأضاف لها فضلا جديدا يوم حملت مسئوليته فى السلم والحرب فدافعت عنه فى مواقعه الكبرى، وحمت حضارته التى تهددها هولاكو والصليبيون، فوق ماعملته على أرضها برصيدها الكبير فى صناعة الحضارة.

إن إيمان مصر المبكر بالدين ممثلا فى تسابيح إخناتون بل قبل إخناتون بألوف السنين قالت مصر بعودة الروح والحساب والعقاب والجنة والنار وفى معبد الدير البحرى لحتشبسوت صورة للجنة كتب تحتها (مكان لا أعداء فيه)

وكثير من قيمها عاش فى الإسلام مع غناه الثرى بالمثل الرفيعة والآداب العالية.

اعتزت مصر بالأسرة وأوصى بها الإسلام خيرا حتى أبى عليها التفكك ولو أشركت. يقول عن الأبوين فى الحض على برهما فى جميع الحالات [وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً.](١)

إن من يتأمل حضارتنا على مسار التاريخ يلمح احتفالها الكبير **بالباب**.. احتفلت به مصر فى قديمها واسلاميتها من إحساسها بما فى الباب من جمع الشمل.. بما فى الباب من (أسرية). وبعض الفرق الإسلامية تسمى العالم، الباب. فهو يفتح للطالب دنيا العلم.

لقد كرمت حضارتنا الباب بنقشه وتحليته. والزخرفة خبرة ملونة، ومحبة منمنمة.

أكرمت مصر الأم ورفعها الإسلام إلى ذرا عالية. (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير).

ومن مأثورات مصر:

(لقد أعطيتك لأمك التى حبلت بك، وقد تكبدت فى حملك ثقلا عظيما وضعته بغير عون منى. وظلت ثلاثة أعوام ترضعك، فلما أرسلت إلى المدرسة. كانت تحمل الخبز والنبيذ من بيتها لأستاذك كل يوم.. لقد شببت الآن واتخذت لنفسك زوجا وبيتا، فارع طفلك وربه كما ربتك أمك، واحذر أن تفعل شيئا يؤذيها حتى لاترفع يديها إلى الإله فيسمع شكواها).

(١) لقمان ١٥

وكرمت مصر الزوجة وجعلها الإسلام سكنا وأمنا. (إذا كنت عاقلا فاجعل لنفسك بيتا. أحب زوجتك كثيرا. وفر لها الطعام والثياب والمظهر. قدم لها الدهانات والعطور، فإن علاج أعضائها الدهانات، أسعدها ماعشت فانها حرث مثمر. لاتكن قاسيا فى البيت فهى أسهل قيادا بالاقناع من العنف. أرض حاجاتها... فان ذلك ما سوف يبقيها فى بيتها).

وأوصى الإسلام باليتيم والفقير وقال الأب المصرى: (كن مرضعا للمريض وأبا لليتيم).

ومن الآداب المرعية فى مصر القديمة ألا يتقدم المرء من لا ولد له عند ركوب المركب، تأدباً.

أنها رعاية مصر القديمة للأبوة فى الحياة، وبعد الحياة.

لقد بنت مصر المساجد على طريقتها فى بناء المعابد. فالصحن فى المسجد، يقابل بهو الأعمدة فى المعبد. والميضة فى المسجد تقابل بحيرة الاغتسال فى المعبد.. اغتسال وتطهر. فى الحالين.

والإسلام رؤيته للإيمان أنه بنيان مرصوص فى عملية ربط بين النفس والبناء.. بين العمارة والعمار فجاء توثيقا وتحقيقا لرأيها فيه، كما وثق وحقق رأيها فى كثير مما يتعلق بالروح.

ومن الطريف أن مصر قبل الاسلام حرمت لحم الخنزير منذ اتخذ (سيت) هيئة خنزير وفقأ عين (حورس) فحرمت الديانة المصرية أكل لحم الخنزير.

وكان المصريون القدماء يعنون بفحص طهارة الذبائح ومطابقتها لمقتضيات الطقوس الدينية.

والطهارة فى مصر القديمة كما جاء فى كتاب (الحضارة الطبية فى مصر القديمة)، (أمر ليس بالغريب خاصة وأنه نابع عقائديا).

كما يقول هذا الكتاب: إن (النظافة كانت عندهم عقيدة قبل أن تكون سبيلا للصحة القومية).

وهكذا كان الإسلام فيه الكثير من مألوف مصر. أو هكذا توصلت مصر بالفطرة السليمة والدفع الحضارى معا إلى كثير من القيم الإسلام فلم يك غريبا أن شرح الله صدرها للإسلام.

لقد وجد الاسلام فى مصر جوا مهيباً. **ولأمر ما تأصل الإسلام فى مصر تأصلا لم يبلغه فى مكان أخر** حتى أن مصر هى التى دافعت عنه فى مواقعه الكبرى وقامت له فيها أقدم وأكبر جامعة إسلامية.

لماذا لم ينتشر الإسلام فى أوربا؟.. لأنه واقف على غير أرضه.. ليس له فى أوربا جذور خلقية ومعنوية تمده بالنماء بل أن (الفكرة الإسلامية) فى أطراف بعض البلاد الإسلامية تخرج عن جوهرها الأصلى(إلى شيعة وزيدية) – كما ذكر الدكتور جمال حمدان – لعامل البعد واختلاف الرواسب الحضارية والفكرية.

إن مصر التى شعرت قبل غيرها بوازع خلقى، هى أول من بحث عن (الحق والباطل) فى تاريخ الإنسان مما تشهد به مسرحية (منف) فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد طلب الفلاح الفصيح إلى الحاكم أن يفصل بين الحق والباطل بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لاتخطئ. وخدم كلمة الموازين كثيرا فى معانى الحق والعدل.

وكانت المرة الأولى التى تذكر فيها الموازين فى تاريخ الاخلاق، وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد العدالة العمياء رمزا للعدل، إلى يومنا هذا.

وفى القرآن الكريم ترد لفظة الميزان والموازين فى الحديث عن الحق والحساب والعقاب والعدل.

(الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) ١٧ ك. الشورى ٤٢

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) ٤٧ ك. الأنبياء ٢١

(والسماء رفعها ووضع الميزان) ٨ م الرحمن ٥٥

وليس معنى هذا أن الإسلام اقتبس من مصر فكرة الموازين. فالقرآن الكريم كتاب منزل وهو فى الوقت نفسه كتاب يهدى الإنسان فى دينه ودنياه ويروى ظمأ الإنسان إلى العدل والخير فى اسلوب يبدأ بالواقعية وينتهى إلى المثالية.

وقد عرف الصفوة فى أزمنة مختلفة، بالفطرة السليمة ألوانا من معانى الخير والعدل. ومن هنا كان سبقهم إلى الإيمان بالأديان لأنها تعبير عما فى نفوسهم وأفكارهم. وقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم الذين لم يعبدوا الأصنام فى الجاهلية: الحنفاء.

على أن الأديان بعد هذا ليست غايتها الاختراع والابتكار، وإنما غايتها الهداية وإشاعة الخير والعدل والرحمة.

ومن شرف الإنسان أو المكان أن يهتدى فى تطلعه إلى السماء.. إلى معان تأتى الأديان فتعززها.

مصر فى الاسلام:

دخل العرب مصر فى فجر الإسلام فراعتهم مصر. كانت مصر فى عين العرب دار الطراز وجزيرة الصناعة (**صناعة السفن**) التى كانوا يندبون لها عمالا مصريين فى كل ناحية من نواحى المملكة الإسلامية يستوى فى هذا العباسيون والفاطميون والأيوبيون.

وعلى أكتاف مصر قام للإسلام أسطول، وبأسطول مصر انتقلت إلى الإسلام سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض يوم أعانته، كدأبها أبدا، فى معركته البحرية مع البيزنطيين فخرجت القوة الحاسمة منها لتهزم أعداءه فى موقعة (الصوارى) وفى رأيى أن موقعة الصوارى أخطر المعارك فى تاريخ الإسلام... **لأنها أشد خطرا من (حطين) و(عين جالوت)** على فداحتهما. وتفسير هذا عندى... أن حطين وعين جالوت دارتا والإسلام راسخ مكين ولو خسرهما، لعوض خسارته بعد أمد طويل أو قصير.. وبالطبع كانت هذه الخسارة ستعوق مسيرته وتثقل كاهله ولكنها فى النهاية خسارة يمكن امتصاصها ثم الاستعلاء عليها ثم النصر فى النهاية بامكاناته الوفيرة فى مجموع بلاده وأقطاره.

ولكن **موقعة الصوارى كان الإسلام حديث عهد بالظهور حديث عهد بالدولة والحكم فلو أنه خسرها لانقض عليه أعداؤه من الروم وغيرهم وأجهزوا عليه**. وقد عرفوا كيف يصيبون مقتلا يوم اختاروا البحر مسرحا للمعركة. فالعرب فى ذلك التوقيت لاخبرة البته عندهم بالبحر وركوبه بله الحرب فيه. وهنا يتجسد البعد الخطير لوقفة مصر فى موقعة الصوارى.

ولهذا السبب بدأت بها البحث لأنها فى رأيى لولاها ماتمت الإنجازات الأخرى.

وفى سنة ٦٥٨هـ وقفت مصر وقفتها فى (عين جالوت) للتتار الذين اجتاحوا بغداد / وحران / والرها / وديار بكر: ثم جاوزوا الفرات واستولوا على حلب / وعاثوا فيها (وجرت الدماء فى الأزقة) كما يقول المؤرخون.

قاتلت مصر التتار **دفاعا عن المنطقة كلها** وأوقفت زحفهم بل استولت على ذخائرهم وسحقتهم **فحفظت بهذا الحضارة الإسلامية** كما أنقذت الحضارة بعد هذا فى حطين.

وفى القرن الرابع عشر الهجرى أو العشرين الميلادى واجهت مصر النار والدمار والحروب والتتار الجدد من كل لون وجنس ولكنها انتصرت **وهو نصر للعرب والإسلام.**

وكما خرجت السفن من مصر لنجدة العرب فى موقعة (الصوارى) خرجت السفن المصرية للرد على الصليبيين إذ أرادوا قطع الطرق التجارية عن الشرق العربى، كما خرجت الجيوش المصرية لدحرهم فى حطين.

مصر والعلوم الإسلامية

مدرسة مصر

وبعد أن استقر الفتح العربى، أكب المسلمون على مدينة الاسكندرية إذ بهرتهم بدورها **فلسفة** «الشيخ اليونانى» كما يدعوه الشهرستانى، أى أفلوطين المصرى الصعيدى وليس اليونانى كما ظنوا ينقلون وينقلون.

وفى الجغرافية والفلك والكيمياء التى كانوا يسمونها «علم الصنعة».. **والرياضة والطب** عكفوا على الاسكندرية ينقلون وينقلون حتى لتعد كتب جالينوس فى الطب وكتاب المجسطى لبطليموس مما ترجمت مدرسة حنين بن اسحق من دعائم **النهضة العلمية فى العالم الإسلامى**.. ولكنهم أمام «أنطونينس» حاروا، وأمام ديسكوريدس النباتى المصرى المعروف، فوجدوا المخرج من حيرتهم ان يقتنصوا كتاب (خواص العقاقير) ليصوروه فى العراق.

وكم عمرت خزائن بغداد بنفائس الاسكندرية (ابن أبجر الكنانى) و(سرجيوس الرسعنى) ثم حنين بن اسحق العبادى وإن كان نسطوريا. وقد نقل لهم فيما نقل عنا، علومنا فى **الهندسة والطبيعة.**

وكتاب الخوارزمى «السند هند» خلاصة لآراء كلوديوس بطليموس الاسكندرى كما كانت جهود بطليموس و(اراتو) الاسكندريين أساسا لكل مباحث العرب فى علمى **الفلك والهيئة**. وعنهم ترجم إلى اللاتينية والإغريقية حيث كان ركيزة لعلم الفلك الحديث. وتجمع للعرب من التلقى والنقل والترجمة مادة على أساسها بنوا حركتهم العلمية.

مصر والتصوف:

ومن مصر استمد العرب روح التصوف والروحانية وعليها اعتمد كتاب (الشفا) لابن سينا. فقد كانت مصر بأفلوطين وراء التصوف الإسلامى، وهو منبع ثرى من منابع الأدب العربى، تماما كما كانت وراء (الميتافيزيقا) المسيحية. كانت نظرية أفلوطين فى قدم الله وصدور العالم عنه وراء نظرية المسلمين المشهورة (العقول العشرة) أو (الوسائط العشرة) كما كان أسلوبه فى الامتزاج بالله وراء نظريتهم فى الاتصال بالخالق وان اختلفت الوسيلة.

ومن عمل الشخصية المصرية فى التصوف، إرساء قواعده وبلورتها، إذ نهج له ذو النون المصرى وصيره مذهبا بما استحدث فيه من تحليل وتعليل وتأويل وتصنيف للأحوال والمقامات وما نزع إليه من منازع روحية ومعارف ذوقية مما سنفصله بعد قليل ولو بعض تفصيل.

إن الطرق الصوفية لم تؤسس إلا فى مصر، سواء ولد أصحابها بها أم دخلوها للاستقرار والعيش المادى والأدبى.. **حتى الطرق التى ولدت خارج مصر ترعرعت بها هى وتبلورت وتكيفت بجوها العقدى حتى غدت بها خلقا جديداً** والمثل عندى (الطريقة الرفاعية) التى اتسمت فى مصر بمجاهدة النفس وأداء الطقوس، والترنم بالصلوات ثم الرجوع إلى (الشيخ) شيخ الطريقة كأنه الكاهن الأكبر.

لقد نشأت هذه الطريقة فى العراق ولكنها عرفت فى مصر، وعلى نحو يختلف عما عرفت عليه فى العراق. وهذا يسلمنا إلى طابع مصر الذى تجلى فى التصوف كغيره من ألوان التفكير والتعبير وهو حب **الوضوح والاستقامة والبساطة والتعاليم الواضحة.**

ومما يثير الدهشة، ويدعو إلى التعجب ماذكره صاحب درة الأسرار فى هذا الصدد عن السبب المباشر فى ارتحال الشاذلى من تونس إلى الشرق. وإليك ماذكره فى هذا الشأن نصا قال:

(رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى ياعلى: انتقل إلى الديار المصرية ترى فيها أربعين صديقا. وكان فى زمن الصيف وشدة الحر فقلت: ياسيدى يارسول الله الحر شديد فقال لى أن الغمام يظللك فقلت: أخاف العطش فقال لى: إن السماء تمطركم فى كل يوم امامكم فقال: فأمر أصحابه بالحركة وسافر متوجها للديار المصرية).

إنها مصر ظل ورى وصديق.. إنها مصر حلم المتصوفة المبارك.

وعلى بن محمد الغرناطى انتهى به المطاف إلى المقام فى الاسكندرية...

وعن أبى الحسن الصباغ المصرى القوصى أخذ ابن عربى نظرية وحدة الوجود... وكان الصباغ أستاذا تتحلق حوله الندوة.. وقد اشتهر بالعمق فى التصوف والريادة فيه امتدادا لأستاذ آخر مصرى كان فى القرن السادس الهجرى أشهر رجال التصوف وأعلاهم قدرا.. ذلك عبد الرحمن القناوى..

ومصر هى صاحبة فن (الحقيقة المحمدية) فى الأدب الصوفى وهو فن -كما يقول الدكتور على صافى حسين- (لم يكن له قبل القرن السابع الهجرى وجود كما أننا لم نظفر رغم طول البحث وكثرة التنقيب بقصيدة أو مقطوعة وردت فى هذا المعنى على لسان شاعر شرقى أو غربى، ممن كانوا يعيشون فى القرن السابع الهجرى، وأما الذين نظموا بعض قصائدهم فى هذا الفن من غير المصريين فإنهم لم ينشئوا قصائدهم تلك إلا بعد أن جاءوا أرض مصر واستقروا بها مدة جعلتهم يتأثرون بشعراء هذا الفن من صوفية المصريين وبالتالى ينظمون فيه على غرارهم عددا من قصائدهم...).

* * *

وضعت مصر للتصوف الإسلامى أسسا، كما أشرنا، على يد ذى النون الذى تقول عنه المصادر الإسلامية ومن بينها الرسالة للقشيرى، والطبقات للشعرانى، والكواكب الدرية للمناوى، وحلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى واللُّمَع للسراج الطوسى وكشف الحجب للهجويرى وكذلك الرازى والترمذى.. إنه وحيد دهره علما وعبادة وحالا، ومعرفة وأدبا.

وإنه: هو رأس هذه الفرقة - الصوفية - فالكل قد أخذ عنه، وانتسب إليه، وقد كان المشايخ قبله. ولكنه أول من فسر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق.

ويقول الباحثون المحدثون ومن بينهم ماسينيون وبركلمان عن هذا المصرى هو أحق رجال الصوفية - على الاطلاق - **بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف ويعدونه بحق واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الاسلامى.**

وتأثيرات (ذى النون) فى التصوف كانت جذورها تضرب فى بيئة مصر، فقد كان يقول الأستاذ الخولى كثير الملازمة لبربا أخميم لأنها بيت من بيوت الحكمة القديمة –فيما يقول القدماء– كما يقولون أيضا: إنه قد فتح على هذا الاخميمى علم ما فيها من كتابات.

وسواء أصح هذا أم لم يصح فإن الوارثات المصرية فى الفكر والعقيدة قد لعبت دورها فى حياة ذى النون وفى أسلوب تفكيره.

وذو النون كانت عبادته لله حبا خالصا لا رهبة ولا رغبة بل محبة وشوقا وهيمانا وكأنه اخناتون فى سبحاته. وذو النون (**أول من أنشد شعر الحب الإلهى وأول من وردت فى شعره مصطلحات الصوفية كما أنه أول من تحدث فى الأحوال والمقامات**).

كل هذا فى سلاسة وعذوبة تسرى إلى النفس فتأسرها حين كان شعر أبى على الروزيادى يشق فهمه ويتطلب الوقوف على مصطلحات الصوفية لإدراكه.

ويذكر الدكتور محمد كامل حسين أنهم **ينسبون إلى ذى النون أنه (أول من وسع الكلام عن الولاية، وبحث، من أيهم أفضل النبى أم الولى، وينسبون إليه كذلك أنه أول من استخدم اصطلاح الابدال، وأنه أول من فصل مسألة المعرفة، إلى غير ذلك من الآراء الصوفية فى العصور الوسطى حتى يومنا هذا)**.

* * *

وبعد ذى النون أعطت مصر للتصوف الإسلامى (**ابن الفارض**) الذى جعله نيكلسون لايقل عظمة فى شعره عن شعراء هذا اللون فى العربية هو والتسترى مقابلين فى الفارسية الجلال الرومى والعطار.

وعلى طريقة ذى النون فى الحب الالهى.. وعلى طريقة مصر فى الخلود الى الصحارى والتجرد والذكر والتأمل والوصول إلى الحقيقة وصل ابن الفارض وكانت القطبانية أو الولاية قبله تؤخذ بالعهد أو الاجازة أو لبس الخرقة.

وابن الفارض فيه من مصر رقة الإحساس وشفافيته، وهو بهذه الصفة سلطان العاشقين ومصر بهذه الصفة فيه صاحبة فن فى التصوف ورفه حضارى، ولم

يعرف عن غير ابن الفارض أنه احتشد للغناء وألوان الفن حتى لينشد أشعاره إنشادا من ولعه بالنغم والتطريب.

ولم يعرف عن غير ابن الفارض أنه غنته الجوارى فطرب حتى رقص على دقات الدفوف وأنات الشبابه.

وكان ابن الفارض كالنموذج العام للمصرى، مطبوعا على الجمال ذواقة له، فقد ذكر المناوى فيما ذكر عنه أنه كان يخرج وقت الأصيل إلى الروضة يتأمل انعكاسات الأشعة على صفحة النيل الجميل الذى كان يهوى الخلود إليه فى المساء.

حتى **أسلوبه نابع من مصر**.. من مدرسة البهاء زهير ثم مدرسة الشعب بأزجاله ولغته الجارية.

وأسلوب ابن الفارض فى الشعر اتسم بالرقة والظرف والصفاء وحيوية العاطفة والومض. وقد **شغلت (تائيته) الشراح حتى المخالفين له فى الرأى فكثرت شروحها وتشعبت..**

وابن الفارض أستاذ الفن التائى فى الشعر العربى وعلى نهجه سار شيوخ التصوف فى التعبير عن آرائهم بقصائد تائية كإبراهيم الدسوقى وقطب الدين القسطلانى والسيد أحمد البدوى.

وعلى هدى مصر لم يتزمت ابن الفارض فنظم إلى جانب الفصيح من الشعر، الزجل بأنواعه وخاصة الشعبى منه فقد ذكر ابن خلكان أن (ابن الفارض قال المواليا وهو شعر يتألف من كلام العامة أو اللغة الدارجة وإن استخدام الألفاظ العربية الفصحى فإنه لايلتزم فيها الإعراب بل كثيرا ما يقع فيها اللحن تمشيا مع منطق وأسلوب اللغة الدارجة التى يستخدمها عامة الشعب فى التخاطب والتحادث وفى نظم الأزجال والبليق والمواليا وكان كان) وكما استمد ذو النون تصوفه من حكمة مصر القديمة، فان **ابن الفارض استمد تطلقه من أفلاطونية مصر ثم مسيحيتها**. فقد كان ابن الفارض يعتقد أن الانسان الواصل تتحد روحه بذات الله حتى لقد صرح فى شعره (بإمكان رؤية الله فى هذه الدار.) أى أن الواصل تغلب «لاهوتيته»، «ناسونيته» وهذا رأى مسيحيى مصر فى المسيح من أصحاب (الطبيعة الواحدة).

كما تأثر العرب بالأفلاطونية فى زيها المسيحى ممثلة فى كتاب «ديونيسيوس» Dionysius الذى يتناول أسرار الألوهية وعالم الملكوت مما قبس منه الكثير (إخوان الصفا).

ويلمح بعض الثقات وجه شبه بين كتاب الغزالى (المنقذ من الضلال) وبين كتاب القديس أوغسطين المعروف «بالاعترافات»، فإن بين الكتابين (موازاة تكاد تكون تامة فيما يحكيه كل من الرجلين عن تاريخ حياته) كما جاء فى كتاب ارنولد نيكلسون.

كما تأثر ابن عربى بأفلوطين تأثرا بعيد المدى يعكس هذا كتاب «ابن عربى» حتى ليشك اسين بلاثيوس مترجم حياته فى صدق تجاربه الذوقية لحرصه على إدراج هذه التجارب فى التعريفات التقليدية للأفلاطونية.

وهكذا قام للنهضة العلمية العربية بناء على دعامة من مدينة الاسكندرية. واستارت أوربا سيرتهم فى العصور الوسطى **فكانت الافلاطونية ركيزة لفلسفة العصور الوسطى وهى الفلسفة المدرسية** Scholastic Philosophy وتركت طابعها على الفلاسفة المدرسيين.

مصر ومذهب الاعتزال:

وتأثر العرب بالاسكندرية مرة أخرى بالواسطة أى عن طريق النساطرة الذين كانت الاسكندرية مرباهم العلمى. وقد نقل العرب عن هؤلاء منطق أرسطو **الذى كان من أثره فيهم نشوء مذهب الاعتزال** كما نهج العرب نهجهم فى أسلوب التعليق على أرسطو بما يشكل شروحا فضفاضة للعبارة الواحدة وبلغ من اقتناع العرب بهذه الطريقة أن اتبعوها فى تفسير القرآن وشرح الحديث.

لقد علل الأستاذ العقاد فى كتابه «ابن رشد» الحركات الثقافية فى المغرب عامة -خلافا للمستشرقين- بظهور الدعوة الفاطمية فى افريقية الشمالية. ورأى أن ظهور هذه الدعوة فى المغرب غيرت فيه كثيرا من وجهات الثقافة والسياسة. كما كان له الأثر المباشر فيما شغل الأوربيين بعد ذلك خلال القرون الوسطى من موضوعات الفلسفة الدينية، وأهمها موضوعات النفس وخلودها وموضوعات العقل وعلاقته بالخلق والخالق.

ثم يرى العقاد أن الدعوة الفاطمية هى الدعوة الإسماعيلية بعينها لما كان الفاطميون ينتسبون إلى فاطمة الزهراء أو إلى إسماعيل بن جعفر الصادق تمييزا لهم عن سائر العلويين.

وينتهى من هذا إلى أن أولئك الإسماعيليين كانوا يشتغلون بالفلسفة «**ويرجحون مذهب الأفلاطونية الحديثة**».

ومن أتباع الإسماعليين الذين نشروا هذا المذهب **إخوان الصفا** أصحاب الرسائل المنسوبة إليهم، ومنهم مسلم بن محمد الأندلسى الذى نقل مذهبهم إلى البلاد الأندلسية.

وقد شاع مذهب الإسماعيلية شرقا وغربا فى العالم الإسلامى من جبال أطلس إلى تخوم الهند وآسيا الوسطى، وكان ابن سينا يقول «كان أبى ممن أجاب داعى المصريين، ويعد من الإسماعيلية».

ويقول توينبى: «فى الفترة القصيرة التى عمر فيها المجتمع العربى **كانت مصر هى البلد الذى اشتد فيه نبض هذا المجتمع الذى كان ضعيفا خافتا فى غيرها من البلاد**. وقد قدمت مصر لهذا المجتمع حافزا هو التربة الجديدة».

* * *

البيئة الحضارية:

لقد أسهم الفرس فى الحضارة الإسلامية بنصيب وافر بالرجال العلماء **ولكن مصر هى التى أعطت العرب والإسلام تربة جديدة ذات طبيعة قوية قادرة ومباءة ذات سالفة فى الحضارة والتفهم والتعمق والانشاء**.. تربة قادرة قام عليها بناؤه كما قام عليها من قبل حياة الحضارة الإغريقية التى لم تجد تربة أخصب من مصر لتتبلور فيها.

مصر والدين

*** جمع الحديث**

إن مفخرة العرب الكبرى (الإسلام) وفى الإسلام تميزت شخصية مصر فى العطاء والوفاء. فما كادت مصر تدخل فى الإسلام وتتفتح له حتى سابقت الى **جمع الحديث**

وتسجيله على ورق البردى الذى عرفت به، وجهدها فى هذا كما يقول الدكتور كامل حسين فى كتابه (أدب مصر الإسلامية)، (**يعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع مكاتب ومتاحف العالم**).

وتتجلى شخصية مصر المحققة ذات العلمية فى هذا المضمار فى صنيعها مع **ابن مالك** فحين اختارته أعملت فيه شخصيتها فلم تقبل الروايات كما هى فى الموطأ بل كان عبد الله بن وهب يدقق فى اختيار الأحاديث وهذا المصرى كثيرا ما كان ابن مالك يفتى بآرائه فإذا قال مالك (حدثنى من أرضى) فإنما هو عبد الله بن وهب.

وإلى مصر رحل جمع من الصحابة حملة الحديث عد منهم محمد بن الربيع الجيزى فى كتابه، مائة ونيفا وأربعين صحابيا وزاد عليه **السيوطى** وسعد فى طبقاته. يقول الدكتور أحمد أمين فى ضحى الاسلام (عد هؤلاء الصحابة مصريين لنزولهم فى مصر واستيطانهم بها ولذلك يلقبهم المحدثون، «المصريين»).

وإلى مصر رحل البخارى ومسلم والنسائى لاستقاء الأحاديث من ثقاتها. وطوف الحافظ السلفى ما طوف فى أكثر بلاد العالم الإسلامى وراء الحديث ثم استقر به الأمر فى الأسكندرية إذ بنى له الوزير المصرى ابن السلار مدرسة للحديث سنة ٥٤٦ هـ وفوض أمره إليه فصارت مدرسته كعبة يحج إليها طلاب الحديث.

إن الفقيه المالكى عبد الوهاب بن على الذى وصفه صاحب تاريخ بغداد انه لم يُر فى المالكية أفقه منه ضاقت حاله فى بغداد فتطلع إلى مصر الملاذ. واذ أكرمه المصريون «وعاش»، بقى فى مصر فلما حضرته الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول: (لا إله إلا الله عندما عشنا متنا..).

ونبغ من المدرسة المصرية فى الحديث سليم بن عتر التجيبى وعبد الرحمن بن حجيرة أبو عبد الله الخولانى (وقد روى له مسلم فى صحيحه ووثقه النسائى) ونافع شيخ مالك وفقيه الحجاز، ويزيد بن أبى حبيب الأزدى والليث بن سعد.

ومن عطاء مصر فى الإسلام: الرجال

كان الشيخ عز الدين عبد السلام يقول (ديار مصر تفتخر برجلين فى طرفيها ابن منير بالاسكندرية وابن دقيق العيد فى قوص).

وكان الشافعى يقول للربيع بن سليمان: ياربيع أدع لى سرجا. يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولايقول أحد شيئا فى الشعر إلا عرضه عليه -فيأتى به، فيذاكره ويناظره ثم يقوم سرج الغول فيقول للشافعى: ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم. كما كان الشافعى يقول عن فقيه مصر قبله، **الليث بن سعد**: (الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه).

* **الفقه**

وكان لمصر شخصيتها فى الفقه: حين كيفت آراء الشافعى وحورت وبدلت فيها حتى اضطر أن يكتب رسالته من جديد فيها عدولا منه عن رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا فى الرسالة الجديدة بالبيئة المصرى وبما خالط وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه.

ومثل هذا فعله **بمذهبه**. ففى مصر كتب مذهبه الجديد وما أوسع الفرق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق. وكتابه (الأم) به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس. وشهادة الشعراء وصيغ الوقف.

أصبحت كتب الشافعى هى الكتب المصرية وحدها منذ القرن الرابع. وربما دل ذلك على أن ماتضمنه الحجة أو المبسوط تضمنته الأم. وربما دل **على أن الكتب المصرية وحدها كانت هى المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث**، قول أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) لمحمد بن وارة إذ قدم إلى بغداد من مصر: هل كتب كتب الشافعى؟ قال لا: قال ابن حنبل: فرطت. فرجع الى مصر فتنسخ الكتب.. ولقد رووا أن ابن حنبل قال: (عليك بالكتب التى وضعتها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك). كما جاء فى كتاب الأستاذ عبد الحليم الجندى عن الإمام الشافعى.

وكان الشافعى نفسه يقول فيما روى البعض عنه (لا أجعل فى حل من روى عن كتابى البغدادى) وفى هذا ما فيه من **اعتماده كتابه المصرى واعتداده به وحده.**

لقد كان الشافعى تلميذا لمالك. يهاجم فى العراق مدرسة الرأى أى مذهب أبى حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد.

ومن الحديث (**إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**) عن أبى هريرة رواه أبو داوود فى سننه والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى المعرفة.

هؤلاء المجددون الذين اقترنت باسمائهم حركات البعث التجديدى فى تاريخ الإسلام فى البضعة عشر قرنا، مصريون معظمهم بالمولد أو المربى أو الولاء.

ففى حياة هذه الفكرة التجديدية كما يقول الأستاذ الخولى (تجد مصر -كدأبها- مشاركة بحيويتها حاضرة بانبعاثها الذى يحدده تدينها المتفلسف وتفلسفها المتدين وعملها العتيد فى البعث ومن أجل البعث).

* **مصر وعلم القراءات:**

وكما اتخذت مصر الإسلامية دورا هاما فى علم الحديث اتخذت **دورا ذائعا فى علم القراءات. فمن (ورش) المصرى أخذ علماء المغرب عن تلميذه (أبى يعقوب)** الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى وأخذ الأندلس عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى.

وفى القراءات **موسقت مصر الدين بطبعها الفنان.**

كتب الشيخ البشرى مقالا عن (تقاليد مصر فى الفن) جاء فيه أن متقدمى القراء فى مصر (لا يَبْدَءونَ قراءتهم إلا من البياتى، وبه دائما يختمون).

ويقول (على أننى لا أدرى من أين جاء مصر هذا التقليد، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد (ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا البياتى هو نغمة البلد الأصلية، أو هو من أصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين. ففى الحق أن هذه النغمة، فوق سعة أفقها، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوى، فإن المصرى يجد من الاستراحة إليها والأنس بها، ما لايجد لكثير.

أو لعله يرجع إلى هدوء فى طبيعتها، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد).

وفى يقينى أن ترتيل القرآن يسهم فى محو الأمية بتركيب الموسيقى القرآنية فى شعور الإنسان السامع.

وبعد القرآن يأتى الأذان. وعمل مصر فيه يحدث عن التناسق والهارمونى فى ذوقها.

فإن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا كما يروى الشيخ البشرى فى كتابه «قطوف» (إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو «الأولة» -ومن أولة الأذان هذه، ابتدع بيرم، فيما أرجح، حين تشرب الروح المصرية، ألوان الأولة فى الغناء- وقفوا وقد أرهفوا آذانهم، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم. فإذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها، وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تقع للاسماع أصواتهم، وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد، وإذا بدأ بالبياتى، أو بالحجاز، أو بالسيكاه .. الخ. فهكذا وماشاء الله كان!).

وهذا اذا دل من ناحية على القصد فى ضبط المؤذنين لأصواتهم، وتحكمهم فى نبراتهم وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى، وإلا اضطروا إلى الخطأ، ودفعوا برغمهم إلى النشوذ (النشاز) إذا دل هذا على شىء فإنه فى الموقف نفسه دليل على أن أهل مصر أو سكان القاهرة على الاقل، **كانوا أصحاب فن، وأهل ذوق، وعشاق تطريب!**).

مصر وتفسير القرآن:

وأسهمت مصر فى تفسير القرآن حتى قصدتها الرحلة فى طلبه. حتى البخارى نقل فى تفسيره وتاريخه من «الصحيفة المصرية» فى التفسير كما نقل عنها ابن جرير الطبرى الشطر الأكبر من تفسيره ونقل عنها معاوية بن صالح قاضى قرطبة، **وشاد بها جمع من العلماء** حتى ليقول أحمد بن حنبل فى مسنده -(بمصر صحيفة فى التفسير لو رحل فيها إلى مصر قاصدا ماكان كثيرا).

وعلى الصحيفة المصرية ارتكزت التفسيرات فى سائر الاقطار الاسلامية بما شملت من تفسير مفردات غريب القرآن بل تفسير الآيات تفسيرا تاما مع ذكر ناسخها ومنسوخها.

وفى القرن الرابع الهجرى كانت مصر تمثل قمة الثقافة الدينية فقد كان فقيهها أبو بكر بن الحداد عالما فى وقت معا بالقرآن والحديث، والاسماء والكنى، والنحو واللغة وسير الجاهلية، والشعر والنسب، واختلاف الفقهاء وكان أعلم أهل وقته.. وكان يدرس فى جامع عمرو وأخذ عنه أعلام الجيل الذى بعده.

وقد تكلم المشارقة فى إعجاز القرآن ولهم فى هذا الموضوع كتب مشهورة ولكنه حديث الدراسة للمصطلحات البلاغية وفنونها ولكن **الدرس الشامل المستقصى.. الدرس الذوقى الفنى للآيات القرآنية** وفنونها الجمالية وتخديم الشعر والنثر لها إنما قامت به مصر بحسها الشاعر الشفاف.

يقول الأستاذ الخولى (ان كل مانملكه من المصنفات –المفردة فى بلاغة القرآن إنما يرجع فيه الفضل إلى المدرسة الأدبية المصرية، التى كانت ظاهرة الأثر فيما حولها من الشرق القريب).

وكم فى العصر العباسى من علماء الدين ممن أنجبت مصر بل ممن **كانوا أقباطا** أمثال ابن القطاس سعيد بن زياد صاحب الحلقة فى المسجد، وسعيد بن تليد كاتب القضاء، ويحيى بن بكير الفقيه المؤرخ.

ومن الظاهرات ذات الدلالة على شخصية مصر فى الإسلام أنها وقفت من العقيدة موقفا يتفق مع طبيعة الإسلام البسيطة السمحة.. ومع طبيعة مصر الصافية السهلة بلا كلفة أو تعقيد. **رفضت مصر أن تتبع الآراء والأهواء التى عرفت فى بعض البلاد الإسلامية من الشيعة والخوارج والمعتزلة**. لم تمل لهم مصر ولم تتجاوب معهم بل لاذت بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة.

وفى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها. وإذ حزب الأمر تطلع الإسلام والمسلمون إلى مصر لتحسم الموقف كدأبها فى الأزمات الكبرى. فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى، والوجدان المصرى مذهبا ينقاد الناس له، ويرتاحون إليه، ويقرون عنده.

وإذا لم يكن هذا الميل إلى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى: (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة إليه يتجه إليها صوفى مصرى بلدى السبكى هو الشعرانى، وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول. وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال. ويقول الباحثون الغربيون أنه مصلح يكاد الإسلام لايعرف له نظيرا. وحسبنا تزكيه لميل البيئة المصرية إلى هذا التوفيق الفقهى الذى لاتسمع فيه لهذا العصر صوتا أجهر من هذا الصوت).

مصر والفن الإسلامى:

لقد **تلقى الفنان المصرى التشكيلى اللغة العربية فاستخدم موسيقاها فى فنه**. فان من يتأمل الألوان فى رخام أرضية السلطان حسن يجده لونا (بديعا) فيه تقابل الألوان وتجانسها على مثال الطباق والجناس فى الأدب وأحيانا يسجع الفنان المصرى المسلم بالخطوط والتشكيلات.

واستلم الفنان المصرى فى العصر الإسلامى نظام الأحجار المتداخلة فى البناء **ولكنه زاد عليه (التقسيم) بالألوان**. كان مأخوذا بالنظام والموسيقى من أثر التاريخ الطويل، فخلق من (التقاسيم) فى الفن الإسلامى، أفراحا تغنى.

وتأتى القبلة (فتنشد) بالألوان وتقاسيم الخطوط فى (الحنى) تواشيح.

لقد موسقت مصر الدين حين رددت آياته، ورتلتها ترتيلا، لأنها تعرف بالحس الحضارى أن القلب البشرى يحن إلى النغم والتناغى فإذا اقترن المعنى الشريف بالنغم الجميل تلقت النفس سيالا من الحنان.

والفن الإسلامى فى مصر حين يطعم ويرصع، يستجمع خبرات المكان الذى أنطق الحجر. ولعب بالذهب، ومهر فى التشكيل والتصوير.. وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة فيما بين القصرين مما أغدقته، على الفاطميين، القاهرة.

ففى العصر الإسلامى غلبت شخصية مصر على الصناعة والفن فساد فى الزخرفة استعمال الحفر والتلوين والتطعيم بل اقتنى الحكام المسلمون التماثيل، هواية مصر المحبوبة منذ القدم مع توهم كثير من المسلمين تحريم الدين لها، وما حرم الدين إلا المعبود منها أو ماقصد به العبادة. ومتى؟ فى حداثة العهد بالاسلام.

لقد كثرت التماثيل فى العصر الفاطمى حتى كانت تهدى إلى قاضى القضاة وحين نسب المقريزى إلى صائم الدهر تكسير أنف أبى الهول وكسر التماثيل **فى عصر الاضمحلال، علق على هذا بأنه عمل ينافى الدين.**

يقول الأثرى الإسلامى الكبير الأستاذ حسن عبد الوهاب فى بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقد فى دمشق سنة ١٩٤٧:

إن العمارة الإسلامية فى القاهرة امتازت بميزتين: الأولى أنها **احتفظت بالكثير من التفاصيل المعمارية** التى انعدمت أو قلت من الأقطار الأخرى التى كانت تشترك معها فيها، والثانية أنها **انفردت بمميزات اقتصرت عليها**، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال النجارة والجس والرخام، ميزتها على كثير من سائر البلاد الإسلامية).

ولما كانت (المساواة) قيمة كبرى من قيم الإسلام، فقد انعكست هذه (القيمة) على العمارة الإسلامية من إيثار الإسلام لها، واحتفاله بها، وتأكيده عليها...

مالت العمارة الإسلامية إلى الأفقية التى تحمل معنى المساواة حين تعين «الرأسية» على التفاوت، و«ترفع» الارتفاع وشموخه. ولهذا يقوم نظام النسب فى الإسلام كما يقول العالم الأثرى الاسبانى «دون مانويل جومث مورينو» على أساس الوضع الأفقى وكأنه تحية لروعة الخلق الإلهى فى البحر والسهل.. وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة. ولايستثنى من الأفقية الإسلامية المحببة إلى الفنان المسلم، إلا المئذنة لحاجة الدين إلى انتشار دعوة الآذان على مساحة واسعة لإقامة الصلاة أحد أركان الدين الخمسة ولايتحقق الانتشار المنشود إلا إذا انطلق الصوت طليقا على ارتفاع.

حتى مايخرج عن «الأفقية» من الأشكال، يطوعه الفنان المسلم لها فيؤثر الزاوية المنفرجة على القائمة بارتفاعها.(١)

وتتمثل الأفقية المنعكسة عن المساواة الإسلامية فى ميل المعمارى المسلم إلى السقوف المنخفضة بدءاً بجامع المدينة ثم جامع عمرو بل جامع قرطبة وجامع ابن طولون.

ولكن مصر مالبثت أن عملت على تصعيد الارتفاع بوراثاتها القديمة التى رفعت المسلة والهرم.

ويتجلى ميل مصر إلى السمو فى الأعمدة والأسقف فى جامع السلطان حسن حتى ليسميه أساتذة العمارة من المستشرقين هرما إسلاميا.

* * *

(١) اقرأ (كتاب القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية) للدكتور عبد العزيز سالم.

وأضافت مصر الإسلامية إلى قديم فنها فى الحفر، الغائر منه والبارز، والتخريم والترصيع بالمينا.. **فن التكفيت**. ومن مصر خرج هذا الفن، وباسمها سار، وعنها أخذته أوروبا فقلدت أيطاليا دون أن تضاهى فلم تبلغ أوج مصر ولم.. تشائيها.. ومضت (بيزا) بفخر اقتناء أروع تمثال برنزى يجمع بين جسم الأسد ورأس النسر، آية من مصر.

وأبرز ماتجلت شخصية مصر القديمة فى العصر الفاطمى الذى تم فيه تعريبها وتأصيل إسلامها.

ففى العصر الفاطمى الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية.. فى العصر الفاطمى هذا أطلت مصر القديمة كالمعتمدة على الحياة المصرية ذات القيمة ففرضت أسلوبها على الفن فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا وتجلت كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق (فى صورة رائعة نشاهدها فى حجاب كنيسة الست بزيارة بالمتحف القبطى. وفى المنبر الموجود فى مسجد قوص وفى محراب السيدة رقية وألواح القصر الفاطمى الصغير فى المتحف الإسلامى).

يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه «من روائع العمارة الإسلامية فى القاهرة) إن الدولة الفاطمية (أحضرت معها فى مستهل حكمها بالقاهرة بعض أساليب العمارة التونسية، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات وأصبحت لها طابع قاهرى بحت فى جميع تفاصيلها).

ويقول الفنان الأستاذ حامد سعيد فى حديثه عن الجمال الرياضى المصرى: (أن الأعمال المصرية لها جوها الخاص الذى يميزها حتى عن الأعمال التى خرجت مثلها من ثقافة واحدة إلا أنها فى بيئة أخرى كما هو الحال فى الفن الإسلامى فى الهند وايران والعراق وتركيا وبلاد المغرب وأسبانيا حيث تشترك جميعها مع الفن المصرى الإسلامى فى وحدة ثقافية كبرى ولكن الفن المصرى الإسلامى يشيع فيه ذلك الجمال الرياضى الذى هو طابع الفن المصرى خلال العصور).

ومهرت مصر بفنها وزخارفها الهندسية والنجمية أشهر الآثار الإسلامية فى العالم مما يشهد به تابوت الإمام الشافعى بقبته وتابوت الإمام الحسين ومنبر مسجد ابن طولون.

وفن الزخرفة فن مصرى قديم وولع مصر به تحكيه آثارها فيه ونقوشها التى تدل على مساحاتها الكبيرة على أن الزخرفة المصرية كما تقول Pavla Fortova-Samalova

فى كتابها Egyptiian Ornament (لم تكن تنبع فقط من رغبة حميمة فى التعبير عن الإيقاعات العميقة للحياة فى أسلوب منظور، وتنبع من حاجة الإنسان إلى رسم ممتلكاته الخاصة بشكل ما.

كما تعكس هذه الآثار إحساس مصر باللون وقدرتها على التنويع باستعمالها عددا محدودا من الألوان لتخلق منه عددا عظيما منوعا).

وأعطت مصر فيما أعطت طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل وذاعت بفضلها فى شرق العالم وغربه كطريقة التعشيق وطريقة التجميع وطريقة الخرط مما كسبه العرب من مصر فيما كسبوا. وإذ عرفته أوروبا عن طريقهم فى الاندلس، سمته «الأرابيسك» وعاشت تسميتها «الأرابيسك» **وما هو إلا فن مصرى قديم** تشهد به آثار توت عنخ آمون والمتحف القبطى والآثار القبطية التى تعد نماذجها فيه امتدادات لروائع مصر القديمة. وأنا لا أحيل القارئ على المعابد المصرية المنتشرة على صفحة الوادى فتلك مهمة متعذرة فى زحمة الحياة، إلا على الدارسين والمفتونين ولكنى أطلب الى القارئ أن يطالع كتاب: Egyptian Ornament ليرى فنون الزخرفة المصرية ثم أدعه يقابل ويحكم بنفسه. ولكن العرب عندما أخذوا مايسمى الآن «الأرابيسك» طوروه حتى وصل فى الحمراء إلى ٦٤٠ شكلا.

وأعطت مصر للفن الإسلامى، الجامع الأقمر بواجهته التى تعتبر قطعة من الفن الجميل والتى نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالمقرنص Stalactite والتى أصبحت من أخص مميزات الفن الإسلامى كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق كما نشاهد فيها الأحجار التى تفنن البناء فى قطعها وتعشيقها وهى –ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة فى مصر فى عصر البطالمة فى مقابر كوم أبويله ثم اختفت لتظهر من جديد فى هذه الواجهة. كما نشاهد أيضا كثيرا من العناصر الزخرفية التى كانت مألوفة فى العصر القبطى قد رسمت هنا بطريقة متقنة تدل على نضوج الملكة الفنية عند رأسهما. والواقع أننا نلمس فى زخارف هذا المسجد و«جامع الحاكم» الروح الفنية المصرية وندرك أنها أخذت تبرز من جديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبى الذى فرض على البلاد فى العصر الطولونى.

حتى الزخرفة بالاشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ودوائر وخطوط متلاقية ومتقاطعة مما اشتهر به الفن الإسلامى تعود إلى الفن القبطى الذى لجأ إلى هذا الأسلوب

فى مرحلة من مراحله خدم فيها الرمز فى التعبير وتعمد البعد عن تصوير طبيعة الإنسان حتى لايتورط فى رسوم لايرضى عنها رجال الدين.

ولما لم يكن رجال الدين فى الإسلام أقل تحرزا فإن الفنان المسلم لم تطل حيرته إذ وجد فى مصر **الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية** التى تبعد عن تصوير الأشخاص فقبس منها. وهكذا نجد كما يقول الدكتور مراد كامل (صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره إلى الفن المصرى الإسلامى).

ومن أجل هذا وغيره يعتبر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق، الفن القبطى «حلقة اتصال بين الفنون المصرية القديمة السابقة على الإسلام وبين الفن الإسلامى».. فمن النقوش الموجودة على المعابد الفرعونية ومن آثار البطالمة، ومن الفسيفساء الرومانية، ومن التحف الساسانية والبيزنطية التى وصلت إلى مصر عن طريق التجارة أو الإهداء.. من هذه الأشياء استمد الفنان المصرى القبطى عناصره الزخرفية التى كون بها فنه الجديد ركيزة استمد منها بدوره الفنان المصرى المسلم فنه الجديد.. القديم.

وأعطت مصر الفن الاسلامى مدرسة السلطان حسن التى تعد من أعظم الآثار الإسلامية فى العالم وأروعها فى مصر.

ومصر هى التى استعملت لأول مرة الفسيفساء المذهبة حين زين بها البناء المصرى محراب قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب التى أنشأتها زوجه شجرة الدر.

مصر أول من استعمل القبو فى التسقيف عندما بنت مشهد الجيوشى حين افتن الفنان المصرى فى محرابه فكان آية...

ومصر هى التى طورت (القبة) التى غدت من معالم الفن الإسلامى وبلغت بها ذروتها فى عهد المماليك حين أهدى الفن المصرى، قلاوون، قبته ومحرابه، مستمدة القدرة مما أسلفت فى فن العمارة والنقش والزخرفة حتى لتعد زخارف الفنان المصرى فى واجهات المساجد والمآذن امتدادات لفن مصر القديمة بما حوت من عناصر زخرفية...

وإذ عاد من جديد النشاط إلى المحاجر والنقش على الحجر.. ابتسم القدر وتذكر الزمن.

وكما أعطت مصر الفرعونية للدنيا القديمة أوانى الفخار الجميلة وابتكرت الخزف وحذقت صناعته وعلمته غيرها من البلاد، **أضافت مصر الإسلامية، الخزف ذا البريق المعدنى ثم ابتكرت مصر صناعة القراميد.**

حتى الفخرانى المصرى البسيط تفنن فى تشكيل القلل وزخرفة شبابيكها زخرفة تظفر بإعجاب الرائى.

وابتكرت مصر فى عهدها الإسلامى الزجاج ذا البريق المعدنى «كما ابتكرت مصر الزجاج المموه بالمينا». والمشكاوات التى أثرت عن مصر فى العصر المملوكى تشهد بعلو كعبها فى صناعة هذا اللون الحضارى. وتطلعت إيطاليا إلى مصر مرة أخرى فقلدتها.

إن الزجاج المصرى عنوان شفاف للحضارة المصرية. وقد وصل الزجاج قمته فى مصر الفاطمية. يوم أعطته مصر فيما أعطت البللور الشفاف. لقد انشرح صدر مصر للعطاء.

أطلت مصر القديمة على الحياة الفنية فلعبت دور الطراز التى عرفت بها مصر دورها فى قصور الخلفاء والأمراء والحكام فى أنحاء العالم الإسلامى. وكانت الكعبة أبرز ما اقترن باسم مصر من أصحابها حتى صار تقليدا مصريا أن تصنع مصر كسوة الكعبة سنويا.

وأحب العرب من مصر المطارف والقباطى والبدنة والقصب وكم سفر لمصر فى الخارج نسيجها وحريرها وطنافسها.. نعم طنافسها فقد اثبتت حفائر الفسطاط سبق مصر فى صناعة السجاد ومنافستها لإيران فى هذا المضمار الذى يحسبه البعض وقفا عليها. وفى متاحف أوروبا بعامة وقِبِينا بخاصة يقوم الدليل.

يقول اريرى (إن مصر تقوم وسط العالم الاسلامى فى الصميم ومن ثم كانت لها صلاحية الدور القيادى فى الحركات الإسلامية بما هى مهيأة له.. تماما كما فعلت فى العصور الإغريقية والمسيحية إذ كانت بمثابة مستودع تبتقى فيه أفكار وثقافات الشرق والغرب وحتى اليوم يعجب المرء من أن مصر لاتزال تمثل هذا الدور. تقدم الغرب إلى الشرق الإسلامى وتقرب بنفس القدر والاهمية الشرق الإسلامى إلى الغرب.. كان هذا ولايزال عمل مصر الأرفع. وفى هذا العمل لعبت مصر دورا لاينكر ولايجحد فى مقدرات الإسلام).

مصر فى العربية:

لقد أخذت مصر فى بداية عهدها باللغة علوم العربية عن العراقيين.. والحجازيين بالطبع بدراسات أدبية ونحوية ولغوية ونبغ من أبنائها الكثيرون ثم رحل إليها من

.الاندلس الباجى الاشبيلى وابن لبابه وغيرهم. وقامت مساجد مصر بدور كبير فى١٦٩ الثقافة الإسلامية حتى لقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء. مائة وعشرين مجلسا من مجالس العلم. فكانت مطمح طلاب العلم وأساتذتهه على السواء وفيها تخرج أعلام وتلقى مشهورون. أدى عن مصر هذا الدور الحاسم، جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص بل سوق الوراقين حيث كانت تدار فى دكاكين الكتب المناظرات ثم، الجامع الأزهر فيما بعد حيث كانت مصر تشع العلم وتجرى الرزق.

قامت مصر مقام مدارس بغداد فى المشرق، ومدارس قرطبة فى المغرب فقد ورثها جميعا بعد أفول الدولتين الأموية والعباسية، الجامع الازهر الذى انفرد (بامامة العلم فى بلاد الإسلام).

تلك الإمامة التى شهد بها حتى الترك – وما أكثر مابين مصر وبينهم – فقد كان الوزير العثمانى (أحمد باشا) يقول عن مصر إنها (معدن العلوم والمعارف).

اختص الأزهر كما يقول الاستاذ عبد الحليم الجندى (أول مرة بتدريس فقه الشيعة. فظلت للشافعية والمالكية حلقاتهم بالجامع العتيق عمرو ثم صار الأزهر لكل المذاهب. وقصده الغرباء وألقى فيه الدروس مشيخة العلم، طوال القرون الماضية مثل عبد اللطيف البغدادى وابن خلدون.

ولما عفت معاهد بغداد وقرطبة، أقبل المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها على الأزهر، فكان ملاذ الشعب والدولة – حتى إذا كان الاحتلال العثمانى (٩٢١ هـ – ١٥١٧م) بقى الأزهر يحمل المشعل، فحفظ للامة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم.

وفى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نهض الأزهر، بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين، وها هو ذا اليوم يحمل تبعاته فى نهضة الأمة الإسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا، من كليات أصول الدين والشريعة والقانون واللغة. إلى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها).

وفى خارج مصر حدث بناء المدارس فى القرن الخامس. كالمدرسة البيهقية والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية لدراسة الدين والفقه.

ولكن لم يبق على الزمن إلا الأزهر يصدر العلم إلى بلاد المسلمين ويوفر العلماء. يقول الأخ السورى الدكتور أسعد طلس، فى حديثه عن العهد العثمانى بالشام، (ولولا الأزهر فى مصر لانطفأت شعلة العلم فى الشام).

ويقول أيضا فى كتابه: «مصر والشام فى الغابر والحاضر» (استطاع -أى الأزهر- خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئا من مكانته فيغدوا ملاذا أخيرا لعلوم الدين واللغة ويغدو بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية تحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ويدرأ عنها التدهور النهائى ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها.. وربما كانت هذه المهمة السامية التى ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر فى تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية والعالم الإسلامى بأسره هى أعظم ما أدى الأزهر من رسالته وأعظم ما وفق لإسدائه إلى علوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل).

الأزهر:

الأزهر من العالم الإسلامى واسطة العقد فهو يؤمه وضعا، ويتوسطه موضعا. يقوم على ارض الحضارات والعلوم والفنون منذ القدم مما يمده بالبقاء والأصالة والاقتدار... وهو لايبعد عن الحجاز مهبط الوحى ومهد الرسالة وموطن الرسول.

وهو فى الشمال من إفريقيا.
وفى الغرب من آسيا.
وفى الجنوب من أوربا.
وكلها تسعى إليه وتلتقى عنده.

ولعل نظام الاروقة الذى يسود به خير شاهد على هذا. بالأزهر ٣٦ رواقا يؤمها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها. يتدارسون فيها علوم الدين وشعائره.

والأزهر هو ملتقى المسلمين من آسيا وافريقيا وأوروبا وجميع أنحاء العالم، الأزهر هذا ومن ورائه مدينة البعوث الإسلامية ينهض برسالة شاملة اليوم كالأمس. رسالة دينية واجتماعية وسياسية.

به اتصلت حياة الأحرار وأصحاب الدعوات كالكواكبى حين جاء من سوريا، بل من الأزهر سافر الشيخ محمد عبده إلى الشام فالتف حوله السوريون سنة ١٨٨٥م (يتلقون عنه دروس العلم والحكمة والخير) كما يقول الدكتور اسعد طلس.

كما ترك الشيخ محمد عبده فى بيروت أثرا عظيما.

بل إن بعض الدعوات الاجتماعية فى بعض بلاد الشرق، نهض بها أبناؤها ممن تلقوا العلم فى الأزهر. وليس إلى الشك من سبيل أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب فى رحاب الازهر وفى رحابه كتبت فصول من قصة تحرير اندونسيا.

بل كذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد افريقيا وآسيا.

إن الأزهر حلم الملايين فى القارتين.

وفى الأزهر قامت الدعوة إلى الإصلاح الدينى على يد الشيخ محمد عبده والشيخ المراغى.

كما يمثل الأزهر الساهر على الثقافة الإسلامية.

إن أضبط مصحف كتابة، ورسما، وشكلا من عمل الأزهر.

والمصحف المرتل.

والمصحف المجود.

إن الأزهر على مسار ألف عام، **يقوم علامة مضيئة بارزة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ مصر على السواء وفى تاريخ الأمة الإسلامية.**

لقد اشترك الأزهر فى صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية بل والعالم الإسلامى. ففى رحباته قام الخطباء والزعماء والمصلحون وأهل الفكر من أنحاء العالم الإسلامى بالدعوة إلى إصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الإسلام من شعائر وشرائع.

ومن رجال الأزهر رفاعة الطهطاوى وسعد زغلول وعلى مبارك والشيخ محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحليم محمود.

حتى النهضة الحديثة تدين للأزهر بروادها كتابا وأدباء ومفكرين وعلماء حتى أولئك الذين انسلخوا منه فى فورة الشباب وثورة الطموح أمثال الدكتور طه حسين وصاحب الرسالة الأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ الزناتى ولكنهم لم ينسوا الأزهر فى حياتهم أو فى كتاباتهم... أيامهم به وآمالهم فيه.

حين ترجم الأستاذ الدكتور أحمد أمين لحياته وقف وقفة طويلة عند الأزهر...

بل إن الذين تخرجوا من القضاء الشرعى إنما يمتدون بجذورهم العلمية الى الأزهر فقد كانت تجهيزية الأزهر وسيلتهم إلى مدرسة القضاء وأحد هؤلاء الأعلام الأستاذ أمين الخولى.

وفى الأزهر تحلقت حول جمال الدين الأفغانى الندوة.. وإلى الأزهر اشرأب الملوك والسلاطين والأباطرة يجسون نبض شعوبهم على وقع كلمات الإصلاح تنادى بها السلطة الحقيقية وهى السلطة الروحية ممثلة فى علماء الأزهر ورجال الفكر والعلم حتى لقد طلب

الشاه وساطة سلطان تركيا عند جمال الدين الأفغانى أن يوقف الحملة عليه فقال العالم فى عزة المؤمنين الذين قرنهم الله برسوله فى الآية (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) قال الأفغانى ردا على رسالة سلطان تركيا: (قد عفوت عن شاه العجم...).

وكم للأزهر ورجاله من مواقف فى حياة العالم الإسلامى، وكم للأزهر ورجاله من منازف فى قلوب المسلمين فى مختلف ديارهم.

* * *

وتعددت مراكز الحياة الفكرية فى مصر وفيها نبغ عدد من العلماء ذكرهم الحافظ السلفى فى معجمه. وكانت أسوان وقوص وأسيوط من مراكز العلم فى مصر وحواضره وكانت الاسكندرية.

وقد اشتهرت الاسكندرية فى القرن السادس الهجرى بمدرستين كبيرتين.. للثقافة الإسلامية بعامة والحديث بخاصة وهما: المدرسة العوفية نسبة إلى ابن عوف أحد فقهاء الاسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك، والمدرسة السلفية وشيخها الحافظ بن طاهر السلفى.

وبعد غارات المغول والتتار فى الشرق وحركات الافرنج فى الغرب (اسبانيا) كثرت الرحلة إلى مصر وتجمعت الحركة الفكرية فى القاهرة. وكما حفظت مصر من الضياع آداب اليونان وعلومهم والتى اعتمد عليها العرب فى تكوين شخصية حضارية لهم، **حفظت فى هذه الهزات تراث العرب الأدبى والفنى بل ونشرته بينهم فى مختلف بلادهم.**

وبعض دور مصر فى العلم، **العلماء** وما علموا. ومن أبناء مصر الذين عاشت على كتبهم الثقافية الإسلامية حتى عصرنا الحاضر:

على بن منجب الصيرفى الذى نقل عنه صاحب جريدة القصر، **وابن برى النحوى** الذى أخذ عنه أبو موسى الجزولى صاحب المقدمة فى النحو. قدمت مصر أيضا **جمال الدين بن هشام** صاحب اللبيب الذى أشاد به ابن خلدون فى مقدمته، **والقفطى** النحوى اللغوى العروضى الأديب صاحب المواقف الأبية عند السلاطين والأمراء الذين كانوا فى إجلالهم له يخدمونه.

والقفطى (على بن يوسف) صاحب التواريخ.

والسخاوى صاحب الشروح.

والبوصيرى صاحب البردة.

وابن ظافر الأزدى صاحب بدائع البدائة.

والليث بن سعد، وابن الوزير التجيبى، وعبد الحميد بن الوليد المصرى، والشاعر المصرى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر، والشاعر سعيد بن عفير الذى كان الوالى عبد الله أبن طاهر يقول (رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفير).

الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء كما كانوا يدعونه.

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين وملوى وأول من ألف بالعربية فى الأقباط. وكتابه «تاريخ البطاركة» **موسوعة** استمد منها المقريزى الكثير من خططه كما نقل عنه القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى».

وممن احتضنتهم مصر:

عبد اللطيف البغدادى العلامة والرحالة.

والسرقوسى عثمان بن على بن عمر النحوى الصقلى.

وابن خلكان، ونجم الدين المغربى القصرى.

والخطيب التبريزى البغدادى.

والشاطبى صاحب القصيدة المشهورة فى القراءات (الشاطبية) وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا.

وممن سمعوا على مصر:

الهمزانى صاحب التصانيف الفائقة.

وابن الجلاجلى...

وابن سعدون القرطبى.

وابن ظفر الصقلى.

وابن الحاجب وهو ممن نشأتهم مصر اذ ولد بها. وهو صاحب كتابى الكافية والشافية فى النحو وله المؤلفات الثقة فى العروض وعلم الأصول والجدل وعلم الفقه.

وممن صنعتهم مصر على عينها القاضى الفاضل الذى تعلم فن الكتابة عن الخلال المصرى. والقاضى الفاضل يعتبر أحد أربعة معالم رئيسية فى تاريخ الادب العربى أو أربع طبقات: ابن المقفع، الجاحظ - ابن العميد - والطبقة الرابعة على رأسها القاضى الفاضل.

ومع الرجال النساء

فقد كان بمصر من النساء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السلفى فى معجمه وابن خلكان فى الوفيات، من بينهم:

تقية بنت غيث بن على الأرمنازى وخديجة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى المدعوة مليحة والجديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى.

وست الأكياس المصرية التى نوه بها السيوطى فى حسن المحاضرة.

ومن معطيات مصر فى العربية الموسوعات كصبح الأعشى للقلقشندى المصرى.. **والقواميس** كالذى وضعه ابن منظور الذى يعد أعظم موسوعة لغوية فى اللغة العربية. (وهكذا وضعت مصر لسان العرب).

ولم تكتف مصر بالتفوق فى العلوم العربية البحتة بل ابتدعت من وحى طبيعتها علوما وفنونا أهدتها إلى اللغة العربية فيما أهدت. **فابتدعت مصر فن «الخطط والأخائذ»** على يد أبن عبد الحكم يقول الدكتور كامل حسين: إن هذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين مما أخذه عنهم مؤرخو مصر الإسلامية كابن زولاق - والكندى والقضاعى وأبن دقماق والمقريزى من أصحاب الخطط. كما يبدو أثر مصر واضحا فى كتاب «المغازى» لابن إسحق.

ونبغت مصر فى فن السير لسابقتها فى تدوين التاريخ وتسجيل الحوادث فملىء الادب الشعبى المصرى بفن السير. فالمصريون هم الذين وضعوا سيرة «عنترة بن شداد» و«سيرة البدوية» ثم «سيرة الهلالية» وسنفرد للأدب الشعبى فصلا يفصل ما أوجزته هذه الاشارة.

وفى مصر دون باقى بلاد العالم الإسلامى عرفت الكتب العربية التقسيم والتبويب والموضوعية حين جرى علماء العراق على طريقة الأخذ من كل شىء بطرف.

ولعل أسلوب مصر الحضارى فى التأليف يمت الى عراقتها فى المعرفة. وقد غلب أسلوبها كشخصيتها حتى أن الفارابى عندما دخل مصر ومعه كتابه «المدينة الفاضلة» سأله المصريون أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

أما عطاء مصر فى البلاغة. **فقد كانت مصر مدرسة بلاغية أدبية** تقابل مدرسة **المشرق** البلاغية الكلامية. ولمدرسة مصر، فضلا عن المسامته، آثار فى المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر، نقدا عليه مسحة من التهكم مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسها الرازى والتفتازانى.

كانت مصر فى تصنيفها للبلاغة تستبعد بروحها الفنية، الفلسفة الكلامية. **استبعادا فيه بغض لها حتى ليسمى رجلنا السبكى**، هذا الاستبعاد، تطهيرا.

وعمل مصر فى البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) يتميز بتبرئتها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاها عمليا.

كما تتميز بالموضوعية فى البحث، والتعمق، والمقارنة، والربط، والتحقيق والتصحيح، والاستنتاج، واللمح، والأناقة الحضارية، واللياقة والرهافة، والذوق الشاعرى وما يملك من رفيف وتفويف.. والدقة وسعة الأفق. والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عسف ولاتزمت مما يغلب على كتب البلاغة الشرقية فى ذلك العصر.

هذه مصر فى البلاغة وهى فى (علم البديع) أبدع. فقد وصل المشارقة وعلى رأسهم السكاكى الى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت على يد بن أبى الإصبع إلى بضعة وعشرين فوق المائة! منها عشرين من ابتكارها بشهادة النقاد فى ذلك العصر مع مافى هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعية بين النظراء وإلا فلماذا لم يلتفت غيرها إلى عشرات الأنواع التى لمحتها مصر بالذكاء والتوقد والبراعة ولطف الحس؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نفذت إليه مصر الذوق الحضارى:

النزاهة: نزاهة الهجاء عن الفحش.

والتدبيج: وهو فن التعبير عن المعانى بالألوان.

والتصرف: وهو اللعب بالكلام فى براعة وغندرة.

والتهكم والتندر: ومصر بخفة الظل لاتجارى فيه.

وطبيعى أن تهتدى مصر إلى هذه الألوان بوحى من طبيعتها وبمدد من ماضيها. ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين **أذاعت فى الأدب العربى شعره ونثره فن التورية.**

وبعض عطاء مصر فى البلاغة والبديع كتب كثيرة منها:

* (تنقيح البلاغة) لابى سعد محمد بن أحمد العميرى، النحوى، اللغوى.

* (رسالة البلاغة) للقاضى الفاضل.

* (الطريق إلى الفصاحة) للشيخ الرئيس علاء الدين.

النفيس المصرى..

* (معالم الكتابة ومغانم الإصابة) لعبد الرحيم بن على بن شيث يخالف فيه اصطلاحات البلاغة المأثورة عن المشارقة.

* (سر الفصاحة) لأبى محمد عبد الله بن محمد الشهير بابن سينا الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ).

* (الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز) لسلطان العلماء أبى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المصرى (ت ٦٦٠ هـ).

* (بديع القرآن) للاديب الشاعر المصرى زكى الدين عبد العظيم، بين فيه مافى القرآن من فنون البديع فأحصى من ذلك مائة باب وثمانية أبواب.

* (تحرير التحبير فى علم البديع) للأديب الشاعر المصرى ابن أبى الأصبع.

ومن رجال مصر فى هذه الحلبة ممن ألفوا الشروح والحواشى والتقارير والأصول، والمتون ممن حاول الأستاذ الخولى لهم عدا:

الأنصارى - والعزى - والأخضرى - والخفاجى - والعليمى - والطبلاوى - والبهوتى فى القرن الحادى عشر.

والحفنى والملوى والدمنهورى والسندوبى فى القرن الثانى عشر.

والأجهورى، والأمير، والصاوى، والباجورى، والعطار، والخضرى، والمرصفى، والدسوقى، والبنانى فى القرن الثالث عشر.

والإبيارى، والإنبابى، والشربينى، والطهطاوى فى القرن الرابع عشر.

هؤلاء بعض أعلام مصر فى البلاغة وأن استيفاءهم لكثير.

وبعد البلاغة، **الشعر**.

فى مصر اختفى من الشعر العربى آثار البداوة. فالشعر العربى فى مصر حتى ماكان منه من نظم القبائل العربية المهاجرة إليها، تسمح وجرى سهلا واختار البحور القصيرة التفاعيل وشاعت فيه الفكاهة المصرية التقليدية والسخرية اللاذعة.

كان من أثر مصر أن سرى فى الشعر العربى السمات المصرية معانى، وفكاهة وسهولة.. كل هذا بفعل البيئة المصرية والطبيعة المصرية المتبسطة فى مساهلة وعذوبة تنفر من التعقيد.

كما ظهرت الحوادث المصرية وصورة البيئة المصرية التى فرضت على الشعراء عدم ذكر الأطلال والديار والرسوم.

وظهرت العاطفة الجياشة فى الشعر المصرى فأضفت على الأشعار المصرية قوة ترتاح النفوس إليها كأبيات المعلى الطائى فى أولاده التى غلبت على أبى تمام حين جمع مختاراته المعروفة بالحماسة فضمنها هذه المقطوعة التى تعبر عن كل أب:

لولا بنيات كزغب القطا ... جمعن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض...
إن هبت الريح على بعضهم ... أشفقت العين من الغمض

أما الفكاهة فتتمثل فى قصة الشاعر الملقب بالجمل الأكبر مع أحمد بن المدبر:

أردنا فى أبى حسن مديحا ... كما بالمدح يتتجع الولاة
فقالوا أكرم الثقلين طرا ... ومن جدواه دجلة والفرات
وقالوا يقبل المدحات لكن ... جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى ... عيالى إنما تغنى الزكاة
فمأما إذا أبى الإ صلاتى ... وعاقتنى الهموم الشاغلات
فيأمر لى بكسر الصاد منها ... فتصبح لى الصلاة هى الصلات
فيصلح لى على هذا حياتى ... ويصلح لى على هذا الممات

لقد ظهر الشعر المصرى ظهورا واضحا فى القرن الثالث للهجرة وقد تكلم ابن خلكان عن شعراء مصر، والثعالبى.

ومن الشعراء من تأثر بالبيئة المصرية الخالصة كالشاعر كشاجم الذى كان كلما رحل عن مصر، عاد به الحنين.

ووفد أبو تمام على مصر طفلا فروته من النيل وروته من الشعر. فأنشد بها أول إنشاده كما يذهب بعض المؤرخين حتى ليعده الكندى وابن زولاق والسيوطى «مصريا» ودعوه شاعر مصر الأكبر.

وهكذا، ينمى إلى مصر شعراء فحول بالمربى والتعليم بل إن شعراء مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى كانوا فحول الشعر العربى فى الأقطار الإسلامية قاطبة. وفى هذه الآونة تصدرت مصر فى الأدب صدارتها فى العلوم والفنون.. والسياسة وكان ذلك منذ أواخر القرن الخامس للهجرة.

ويذكر الدكتور أسعد طلس من رجال مصر مابين القرن السابع والقرن التاسع:

(ابن نباته المصرى (٧٦٨ هـ) وابن أبى حجلة (٧٧٦ هـ) وشمس الدين الهوارى (٧٨٠ هـ). وهؤلاء شعراء مجيدون خلفوا آثارا تدل على سمو كعبهم فى الأدب المصرى الإسلامى. ومن الأدباء المصريين الفحول فى هذه الفترة الشهاب القلقشندى (٨٢١ هـ) والبدر الدمامينى (٨٢٧ هـ) والشمس النواجى (٨٥٩ هـ) والمؤرخ بيبوس المنصورى (٧٢٥ هـ) وابن منظور (٧١١ هـ) والشهاب النويرى (٧٣٢ هـ) وغيرهم.

وقد كان لهؤلاء الأئمة تلاميذ من الشاميين قصدوهم إلى ديار مصر وتعلموا عليهم فى الأزهر أو فى غيره من المعاهد المصرية، ولو رحنا نستقصى أسماء هؤلاء الطلاب لجئناك بسفر ضخم).

وصدارة مصر الفنية وثروة مصر المادية جذبت إليها الشعراء والكتاب والعلماء فانتجعوها مسحُرين. وترطبت ألسنتهم باسمها وترنم شعرهم بذكرها.

وحين كان شعراء العرب فى مصر يلتزمون «العمود» والبحور التقليدية، كان المصريون ينطلقون على سجيتهم المجنحة الرفافة، فالألفاظ رقيقة سهلة مضيئة، والبحور آثروا منها القصيرة التفاعيل، والقصائد الطويلة استبدلوها بالمقطعات. ولأمر ما سمى المصريون ذلك اللون الذى استحدثوه من الشعر الشعبى «البلاليق». وهو اسم طائر مختلف ألوانه، شجى صوته، له تطريب. وذاع هذا اللون فى عصر المماليك وسامت فن الموشحات.

ومن الألوان المصرية فى الشعر العربى الأديرة. وقد وجد هذا اللون فى غير مصر حيث تتناثر الأديرة فتغنى البحترى بدير العاقول، وابن المعتز بدير السوسى. ولكن انتشارها كان بمصر ومن ثم كثر شعر الديِّارات بها.

ومن الالوان التى استحدثتها مصر فى الشعر «**فن رثاء الدول**».. وهو كما يقول الدكتور كامل حسين (فن جديد كل الجدة فى تاريخ الأدب العربى).

حقيقة وصف البحترى إيوان كسرى (ولكن شعراء مصر لم يستمدوا صورهم وعواطفهم من التاريخ بل شاهدوا الأحداث وسجلوها وعبروا عن مشاعرهم نحوها).

حتى مالم تستحدثه مصر طورته وتفننت فيه **فن الإجازة** مثلا أخضعته مصر لطبعها الحضارى فقسمته قسمين اجازه معاصر لمعاصر واجازة معاصر لقديم.. وجعلت له تقاليد خاصة لم يكن معروفا بها. واذ غدا فن الاجازة على يد مصر خلقا جديدا اطلقت عليه اسما من صنعها فسمته (**التمليط**).

ويبدو أن مصر عافت المدح يتصدر القصائد فاستحدثت القصائد الغزلية التى لاتبقى للمدح إلا نذرا من مقال أو مجال. وأطالت مصر هذه المقدمات لا أدرى أسخرية من المدح والممدوح أم حبا فى الغزل لمواءمته طبيعتها الرقيقة الدافئة.

على كل حال استحدثت مصر هذه الطريقة ثم كلفت بها كعادتها، وسمتها «**الطريقة الغرامية**». ولها فى هذا الباب قصة قد يقرؤها المرء للحظتها ثم يعبرها ولكنها على عفويتها تؤيد معنى كبيرا وتعمق خطا ممتدا على سير التاريخ وعلى طول الزمن: هو نزوع مصر إلى السهولة **وانطباعها على العذوبة والرقة والأناقة الحضارية**.

جاء فى خزانة الأدب «لابن حجة الحموى» أن ابن سعيد المغربى خلال زيارته لمصر اجتمع بابن سناء الملك فسأله أن يرشده السبيل إلى الطريقة الغرامية هذه فوجهه البهاء زهير إلى قراءة بعض دواوين الشعراء على أن يراجعه بعد ذلك، فغاب ابن سعيد مدة أكثر فيها من قراءة هذه الدواوين إلى أن حفظ أغلبها.

ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكرا فى الغراميات. وفى غضون -حديثهما أنشد البهاء (يابان وادى الأجرع) وقال اشتهى أن يكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال:

«سقيت غيث الأدمع».

فقال البهاء المصرى: هذا والله حسن ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول:

«هل ملت من طرب معى».

لقد كان ابن حجة يسمى **مدرسة مصر فى التورية** مدرسة (السحر الحلال) وقد لعبت هذه المدرسة دورا كبيرا فى شعر هذا العصر.

ولم تتكلم مصر العربية، بالمعنى الجامع، إلا منذ عدة قرون فإذا بها تستحدث فيها كل هذه الآثار... وتضع لها قاموسها الأكبر والأشهر والأصح ١١ .. «لسان العرب الذى وضعه ابن منظور المصرى.

مصر فى الأدب الشعبى العربى:

لهذه الشخصية أكثر من أثر فى الأدب الشعبى وبعض هذه الآثار: الإنشاء، والإيواء، والتحرير، والتحوير، والتمصير، وإشاعة قيم جديدة، وتسوية نماذج جديدة أيضا.. حتى السير العربية الأصل، العربية الأبطال **مصرها الشعب المصرى** كملحمة بنى هلال إذ نقاها من تصرفات البداوة وموروثاتها ومواضعات حياتها كنظام الرياسة وبواعث الحروب.

هذب الشعب المصرى هذه السيرة وحضرها وارتفع بها فأبو زيد الذى لايعدو أن يكون أحد فرسان القبيلة أصبح على يد مصر قائد جيش نظامى يعرف التحضير والتجهيز والتحصين والتعبئة. كما مد له المصريون فى الشجاعة حتى ليأتى بالخوارق فى بابها وفقا لمزاج مصر فى التهويل. وعلموه مختلف العلوم والفنون، واللغات **وهى لمسة حضارية طبيعية من مصر**. وجعلوه واسع الحيلة يعرف مداخل الأمور وخوارجها وكأنه «ابن بلده -يفهمها وهى طايرة- وانعكس هذا على الأمثال الشعبية المصرية التى تقول: (سكة أبو زيد كلها مسالك).

والحسن بن سرحان ارتفعوا به من أمير قبيلة إلى ملك الملوك ولكنهم قيدوه بالشورى. فهو لايبرم أمرا لاتراه الجماعة، كما جعلوه كريما واسع العطاء فى فيض -وكأنه النيل- وجعلوه عادلا عفوا انعكاساً لرغبة النفس المصرية فى العدل والسماحة. وبهذا غدا الحسن بن سرحان بمجامع **الصفات المصرية فيه**، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجيه السمت والشارة، باذخ العطاء، «الفنجرى»: عامل أبو على.

وقد استحدث المصريون فى سيرة الهلالية: (ديوان مصر) من شعورهم بأنفسهم ووعيهم لذاتيتهم.

وأشاعت مصر فى القصص الشعبى **قصص الفكاهة** كما أشاعت فيه **الحياة الأسرية**.. دفء البيت.. وهذا اللون خاص بمصر فى ألف ليلة. فالحياة المصرية الخاصة هى وحدها المفصلة فى الليالى. فمنذ يستقبل وليدنا الحياة تسجل الليالى: ففرحة المولود،.. والسبوع، والنمو، والتربية، وممارسة الحياة، وزفة العرس، والزوج والزوجة، والأم، مادة خصبة فى الطبقة المصرية من ألف ليلة وليلة.

وأشاعت مصر فى القصص الشعبى كالهلالية والظاهر بيبرس وألف ليلة، **فنها القديم** «**السحر**». فالغزالة المسحورة تستدرج غريمها، واسمه دياب بن غانم والجن له ملوك وملكات تنشب بينهم وبين أبطال السير المعارك وكأنها العنف الذى يقابل الوداعة المصرية ويموج سطحها الأملس بدوامات الحزبية والهوى انتصارا لهذا الفريق أو ذاك تسلية فى بادئ الأمر، ثم حقيقة.

وإذ تم تمصير السيرة تحمسوا لها كالعادة حتى ليخلعون اسماءها على الأبناء ويرسمون صورها على الجدران بل الصدور.

بل إن الشعب المصرى «**مفرط، الرياسات فى الملاحم الشعبية**. ففى سيرة الظاهر بيبرس لم تعد الرياسة وراثية كمشيخة القبيلة بل غدت بالانتخاب.. إنه نزوع مصر إلى الديمقراطية وكأنها تهتبل هذا اللون من الأدب لتبث فيه مثلها حتى ولو لم يسعد بها الواقع. وتمضى مصر تقعد القواعد وترسم الصور للمجتمع والأشخاص وتنقد مايغاير هذا لتؤكد ذاتيتها.

وحين سقطت بغداد فى يد هولاكو أوى القصص الشعبى إلى مصر.. إلى القاهرة **فأضافت وحورت وسوت وصقلت** كما فعلت فى «**الهلالية**» و«**ألف ليلة وليلة**» فبثت فى الأولى عواطف واستحدثت فى الأخرى طبقتين أو لونين:

اللون الأول طبقة «الشطار» التى **شاع فيها طلب العدل**.. أما اللون الآخر فهو «وصف الآثار المصرية».

وقد أضافت بلاد أخرى إلى ألف ليلة، ولكن مصر هى التى بلورتها بعد أن اعطتها إضافات هامة ثم صبتها فى القالب الأخير الذى تعرف به بعد أن لمسها القاص الشعبى المصرى اللمسات الأخيرة.

رد القصص الموضوع فى مصر إلى أصول فى الأدب الفرعونى فقصة على الزيبق –يردها نولدكه إلى القصة المصرية القديمة كنزرامبسينت. وقصة القرد الكاتب يلمح فيها شبيجلبرج توت المصرى القديم الذى يصور فى صورة قرد.

وبعد صنيع مصر هذا أخذت «ألف ليلة» طريقها إلى أوروبا بالنقل والترجمة بما تحمل من طابع مصر ممثلا فى حكمة النصيحة واصطناع الصبر والأناة وما إلى هذا من مظاهر السلوك والعمل الذى تضرب جذوره كنباتنا فى بيئتنا الزراعية. وفى الكتاب من مصر من حيث الشكل، ظاهرة التكرار وكأنه يحاكى الفن المصرى الإسلامى فى تكرار الأجزاء والوحدات الكاملة. والمزاج المصرى يرتاح إلى التكرار بما فيه من الطبيعة المصرية.

حتى أولياء الله يتخذون مصر مقرا ومقاما، وحين تقوم مصر بدورها القيادى فى المنطقة على مسرح الأحداث الكبرى، يؤكد هؤلاء الأولياء دورها الكبير بما قر فى نفوس الجماهير من إيمان مسلم به بالغيبيات والكرامات إيمانا يؤيده الأدب الشعبى الذى يجعل من شخصيات الأولياء قوى غيبية تتدخل فى كثير من المواقف تدخلا مباشراً. ففى قصة الظاهر بيبرس نجد **السيدة نفيسة** تجمع بينه وبين عثمان بن الحبل ويتصافيان فى رحابها وبين جنبات جامعها، كما نجد المغاورى يجمع بين الظاهر بيبرس وجمال الدين شيحه، ثم يجمعهما بالقائد البحرى محمد فارس البطريق المغربى. أما **السيدة زينب** فى القصة فهى روح.. ونفحات تلهم النصر وتدنيه بما تجمع من صفوف وتضم من شتات وتوثق من روابط.. روح تبارك المواقف وتسعدها.

وهكذا صبغت مصر قصة سيف بن ذى يزن بالأساطير القديمة عن النيل.

ومن عمل الشخصية المصرية فى الأدب الشعبى آثار مصر فى فن: «خيال الظل».

إن ابن دانيال أعظم المبرزين فى فن خيال الظل لم يستقم فنه إلا بعد أن أوى إلى مصر عندما دهم التتار بلدة الموصل. ومع تبريزه وتفويه لم يقو على فرض تمثيلياته على مصر أو يحمل فنانيها على أدائها وعرضها بل التقطت مصر هذا الفن ومارسته بطريقتها هى فأخملت ابن دانيال حسين عفت فصفت تمثيلياتها من المجون والاقذاع واتسمت كدأبها فى فنون الأدب بالفكاهة والنقد.. بل عمدت مصر إلى بث الحياة المصرية فى هذا اللون من الفنون الشعبية وقبسته بعضا من تاريخها وفرضت عليه أماكنها وصور العيش فيها.. إمعانا منها فى ربطه بعجلتها.. فى تمصيره.

وراحت مصر بعد هذا تغاير فى التقاليد التى وضعها ابن دانيال فوضعت تقاليد فنية جديدة فى الاستهلال والختام فكانت تمثيلياتها «لعبة التمساح» و«لعبة المنار» اللتان عثر

عليهما المستشرق (بول كاله) فيما عثر عليه من مخطوطات القاهرة سنة ١٩٠٩، طبقة أخرى غير ابن دانيال حتى لتعد الدراسة المتخصصة، التمثيلية المصرية «حرب العجم» أو «لعبة المنار».. من أروع ما خلفه خيال الظل.

وفى هذه التمثيلية وحدها دلالة كبيرة على شخصية مصر وعملها ونزوعها إلى الفن وإلى الجد والتجميع والكفاح والظفر بالنظر والتغنى به غناء يغرى ويشحذ العزائم للجهاد فى الحروب الصليبية التى أخذت مصر فيها دورا طليعيا قياديا من حيث الفن الحربى والتبعات. هذا حين نجد ابن دانيال الذى يقرن به فن «خيال الظل» يخدمه –وفى العصر نفسه والظروف عينها تخديما متواضعا فيعرض كما يقول الدكتور عبد الحميد يونس (لمناقرة الديكة وتناطح الخراف ومصارعة الثيران ويستعرض الانحراف الأخلاقى ويسخر ببعض الاوضاع).

ولقد بدت خصوصية مصر وصقلها فى أسلوب التمثيليتين فقد كان أسلوبا فنيا راقيا يعتمد على التصوير والأدب معا ويجعلهما صالحتين للعرض أمام الخاصة المثقفة والعامة على السواء.

ولقد دخلت التمثيليتان بما وفرت لهما مصر، الفن الشعبى، حين اخرجت منه الدراسة المتخصصة بابات ابن دانيال على شهرتها.

وعن مصر أخذت تركيا فن خيال الظل وتأثرت بها فاستعارته اليونان. وعن مصر أخذه الشمال الأفريقى.. وعن مصر أيضا انتقل إلى شمال حوض البحر الأبيض المتوسط.

وهناك فنون من الأدب الشعبى وعلى التحديد من الشعر الشعبى، نشأت فى غير مصر مثل «القوما» و«كان كان» ثم لمحتها مصر وادخلتها بوتقتها فانجلت حتى لتروع ابن خلدون حين يتحدث عن هذه الفنون فيقرر أن (أهل مصر القاهرة أتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها فى أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب).

ومثل هذا **فعلته مصر بالموشحات** التى اقترنت باسماء شعراء مصريين بالأصل أو المولد أو المربى... بل ان الشاعر المصرى ابن سناء الملك هو الذى ألف فى فن التوشيح كتاب «دار الطراز فى عمل الموشحات».

وزكى شاعرنا، الصفدى فى كتابه «توشيع التوشيح» كما زكاه صاحب كتاب «المقتطف من أزاهر الطرف» الذى نقل عنه ابن خلدون موشحه ابن سناء الملك التى

طارت شهرتها شرقا وغربا: (حبيبى ارفع حجاب النور عن العذار) وان كان هذا لم يحل دون نقد الدكتور الأهوانى له فى كتابه: «ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر».

ويسلمنا الحديث عن الموشحات إلى ألوان من الأدب الشعبى كان لمصر ذوق خاص فيها كالموال.

نشأ الموال فى بغداد ولكنه تفتح وازدهر فى مصر.

فقد استحدثت مصر فى فن الموال من الناحية الفنية «السجع المشطر» فنظمت لأول مرة «البسيط» مجزوءا متصرفة فى عدد أغصان الموال. ومضت تتصرف فى عدد شطرات الموال، وفى القافية، وتنوع فى الوزن دون أن تخرج على البحر. ويتمثل صنيعها، وهذا فى الموال الذى استشهد به ابن خلدون فى مقدمته.

هذى جراحى طربا ... والدما تنضح
وقاتلى يا أخيا ... فى الفلا يمرح
قالوا وتأخذ بتارك ... قلت دا أقبح

وبرعت مصر فى فن الموال حتى تطعمت به أمثالها الشعبية.

واستخرجت مصر من البحر البسيط بقدرتها على اللعب الفنى، **صورا عدة للموال** من حيث التنسيق والقافية. فالموال الأعرج والموال النعمانى وهو من تخريج أهل الصعيد ومواويل «الفرش والغطا» التى ينشدها المغنون على طريقة «الموال النعمانى» **بل بلغ الصعايدة بفن الموال مبلغا ينظمون معه المواويل ارتجالا** على البديهة فى سرعة ولماحية وشفافية أيضا. وهم يسمون عملهم هذا أو فنهم هذا: «الرمى» وهم حين «يرمون» فإنما يتناولون جوانب الحياة كلها فيكون موضوعهم سياسيا أو اجتماعيا أو وطنيا أو فكاهيا أو اقتصاديا. وفى كل الحالات نجد الحكمة مبثوثة والحادثة مسرودة، والمعنى الغريب مقتنعا فى براعة وحذق، والصياغة بعد هذا لاهى بالمكروه ولا بالمستهجنة.

وفى مجال الابتكار فى صياغة الموال يأتى بير المصور بالمعجب فيجزئ الأشطر ويغاير بينها فى الطول ويخدم مع القافية الأصلية قافية داخلية وينوع فى وزن الموال ويقفى أشطره.